حتى ننتفع بالتراويح

٧/ ٩/ ١٤٣٦هـ

إذا ذُكِرَ رمضان ذُكرتْ التراويح، تلك السُّنَّة التي توارثتها الأمةُ عن نبيهـا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتي حصل بسـببها خيرٌ عظيمٌ.

إنها لمشـاهد تبعث على البهجة، حين ترى تلك الجموع تنقاد طواعيةً إلى بيوت الله، من مختلف فئات المجتمع، ومنهم أولئك الشبابُ الذين قد لا تبدو عليهم مظاهرُ الاستقامة الظاهرة.

إن التراويح ليسـت مجرد تظاهرة دينية رمضانيـة، بل هي انتصابٌ للأقدام بين يدي ملك الملوك قُرابة السـاعة، والمصلي فيها يسـتمعُ لخير ما نزل من السـماء، كلامِ الملك العظيم، الذي ما صلحت القلوبُ بمثل ما صلحت به.

إن أحدنا لو كثرت مجالسـته للملوك، أو أهـل الثراء لظهر أثرُ ذلك عليه وعلى كلامه ولباسـه، فكيف بمن يجلس على هـذه المائدة الربانية ثلاثين ليلة! وتزداد كثافةً في عشرها الأخيرة، هذه المائدة التي تتنوع فيها

المواعظُ والأحـكامُ، وآيات تتحدث عن أشرف علومِ هذا القرآن، وهو الكلام عن الله تعالى وعن صفاته جَلَّجَلَالُهُ!

وإن مـن النُّصح أن نتواصى فيـما بيننا، للبحث عن أفضل السُّـبُل للانتفاع بهذه المائـدة الربانية (التراويح)، ولعلي أشـير إلى أهمها، ومن ذلك:

أولها: ينبغي ألا يغيـب عنا -ونحن نمشي إلى التراويح- أن المقصودَ الأعظمَ من العبادات كلِّها هو تعبيدُ هذا القلب لله جَلَّوَعَلَا، وتذليله ليصل إلى الغاية الكبرى التي خُلق من أجلها الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريـات:٥٦]، ومن هذه العبـادات: صلاة التراويح، فمتى استحضر المصلي هذه الغاية -وهو ذاهب للصلاة- فسيكون لها أثرٌ بالغ في صلاته، والتلذذ بسماع كلام الملك الرحمن.

ثانيها: حينما تُيمم وجهَك شـطر بيتٍ من بيوت الله؛ فسـل ربك أن يجعل هذه الصلاة سـببًا في صلاح قلبك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وعلى العبد أن يسأل ربَّه بإلحاح أن يصلح هذا القلب، فإن صلاحه ليس بمجرد حسن صوت القارئ، ولا بجودة المكان، ولكنه توفيقٌ من الله لمن صدَقَ معه، وانطرح بين يديه.

تأمل هذه الآية التي خوطب بها الأسرى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال:٧٠]، وتدبر هذه الشـهادة من العليم الخبير، التي تدل على أثَرِ صدق القلب فيما ينزله الرب تعالى عليه من بركات: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨].

ثالثًا: أن يستشعر عظمةَ شعيرة الصلاة، فهي خيرُ أعمالنا كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»(١)، وصلاة التراويح من جملة هذه الصلوات، والله تعالى يبين لنا أن تعظيم شعائره برهانٌ على تقوى القلب: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج:٣٢].

رابعًا: أن يعيش هيبةَ الموقف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه واقف بين يدي مَنْ سعادتُه وصلاحُ حاله في الدنيا والآخرة بيده.

إن استشعارَ هذا الموقف وحده كافٍ في أن يخفّف عليه ما قد يجده من طولٍ في صلاته، بل ستتحول هذه المشقة إلى لذة.

خامسًا: تفقَّدْ قلبَك بعد الصلاة، وانظر: ما الذي أحدَثَه فيه هذا القرآن؟ فإن لم تجد الأثر فعُدْ على نفسك بالمحاسبة؛ إذ الرب شكور، لا يمكن أن يعمل العبدُ عملًا إلا ويثيبه عليه، هنا سيكون للتراويح أثرُها الواضح في حياة مصليها، ليس في رمضان فحسب، بل في العمر كلّه.

فإن قَصُرت النفسُ عن تحقيق ما سبق كله، فإن شعورها بالتقصير في حق الله، وضعفِ الأثرِ من ممارسة تلك العبادات، هو بداية الطريق نحو التصحيح، واستثمارِ مواسم الطاعة، في تحقيق أجلِّ مقاصد نزول الكتب، وإرسال الرسل، وهو: إصلاح القلوب، وتعبيدها لرب العالمين.

(١) سنن ابن ماجه (رقم٢٧٧)، ومسند أحمد (رقم٢٢٣٧٨) وسنده صحيح.